ڤيرلين الشاعر

VERLAINE

لعلي محمود طه

كان فتىً حالماً ، رقيق البدن ، منبسط الجبهة ، عميق النظرة ، مرح النفس . قذفت به الحياة الى معتركها غمراً ، لم تكشف له تجاربه المحدودة عن طبائع الناس ، ولم يهيئه طبعه الرقيق ، ومزاجه الحاد ، لمكابدة شظف العيش وضنك الحال ، وان هيأته روحه ليكون حيث هو الآن ، من نباهة الذكر ، وسمو المنزلة ، وخلود الاثر

ولو قد عرف « البارناسيون » ما ناطته السماء بمستقبل هذا الصبي الشاعر ، وهو يختلف اليهم من حين الى حين ، ولو قد تبين جماعة « ميلارمي » ما تنطق به مخايل هذا الشاب العابث في أبهاء الحي اللاتيني لحصوه احداث الزمن ، ولما تركوه غرضاً للفاقة والتشريد والعذاب ، ولضنوا بصاحب هذه النفس الشاعرة الموهوبة والعبقرية المبدعة الفذة ، ألا يجد وهو في مستهل حياته قوت يومه ، ثم لفزعوا الى القدرة فما صرفت أمه عن العناية به صغيراً ، فشب مطلق العنان ، يرتاد المواخير ، ويدمن الخمر ، ثم لما غادر زوجه وأمه وولده هائماً بين باريس ولندن وبروكسل ليعود الى وطنه ضحية اتهام قاس ، ينال من رجولته ، ويلقي على نجمه المتوقد ، سحابة من الزراية والامتهان . ثم لما ارتفعت من حوله صيحات العار ، تلاحقه من مكان الى مكان ، فغلقت في وجهه أبواب الرزق ، وسدت على ذلك الهارب المسكين منافذ الرجاء والطمأنينة ، فمضى يستنبت الارض في الريف البعيد ، في كثير من اليأس والعناء ، وهو ذلك الروح المرح ، الذي لم يخلق لغير الشعر والغناء . ثم لما تحالف هذا الشر كله على ذلك الضعيف المكدود ، فاستبد به المرض ، فقضى غريباً وحيداً ، منبوذاً الا من امرأة بائسة مثله ، ساهمته حبه الاخير وشقاءه الاخير ، فلفظ في ظل قربها وعطفها انفاسه الاخيرة

حقاً ! ! لقد كانت حياة ڤيرلين فاجعة محزنة ، فمن الحان الى السجن الى الماخور الى الهيام في الطرقات ، الى ملاجيء البر

هذا هو الشاعر الخالد . . . الذي كان ارخم صوت غنائي صدح به الشعر الفرنسي في القرن الذي أنجب هيجو ، لامارتين ، جوتيه ، موسيه ، بودلير ، رامبو ، جول لافورج ، ومالارمي وغيرهم

إن في حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنه العبث الذي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي ، والذي يتيح للادب في كل جيل فنوناً شتى من الاجادة والابداع . ولكنه الألم الذي يفرض العذاب على القلوب الشاعرة فينطقها بالنغمات الفريدة الساحرة ، ويصل ما بينها وبين السماء ، فتشرب من روعة اللانهاية وصفائها ، وتمنح البشرية الوضيعة المعذبة ، لحظات من السعادة والسمو

ولد بول فيرلين في مدينة « متز » من ولايات فرنسا الشمالية ، في الثلاثين من شهر مارس عام ١٨٤٤ ، أي بعد مولد بودلير الشاعر بعشرين عاماً تقريباً ، وكان أبوه ضابطاً ممتازاً في الجيش الفرنسي ، وعند ما بلغ السابعة من عمره ، رحلت به عائلته الى باريس ، فألحقته بمدرسة خاصة ، ثم بمعهد « ليسي بونابرت » حيث أظهر فيرلين على حداثته ، تفوقاً مشهوداً في اللغتين اليونانية واللاتينية وفي علوم البلاغة والادب ، فمنح جائزتها مع درجة شرف Degree of Honour ثم استمر في دراسته قليلاً من الزمن ، حتى ظفر بوظيفة حاسب في احدى دوائر باريس المالية

ولكن حياة فيرلين الشاعر تبدأ عام ١٨٦٦ ، ففي الثانية والعشرين من عمره ، أخرج اول مجموعة شعرية عنوانها « قصائد طابية » « Poèmes Saturniens » وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الثانية « أعياد مرحة » « Fêtes Galantes » فأصاب فيرلين من تينك المجموعتين ، حظاً كبيراً من الشهرة والتقدير كشاعر غنائي نابغ ، كما أصاب حظاً من التعاسة والشقاء . وكانت الأيام قد مهدت لهذه المتناقضات ، فقبل نشر ديوانه الأول بعام ، مات والده ، وعاش الشاعر الصغير في رعاية أمه ، فدللته ، وأطلقته على عبث الشباب ونزقه ، بما كانت تمده به من المال ، فانغمس الفتى في شهواته ، وانطلق يعب من ملذات الحياة كيفما اشتهت نفسه الظامئة ، وشبابه المضطرم

ثم اطلقته الاقدار بعد ذلك على الحياة التي بدأ يشغف بها ويتمرسها ، حياة الشرود والهيام ، فصادف جماعة من الشعراء البوهيميين الذين كانوا يجتمعون كل مساء في مطعم « ريشولي » بالحي اللاتيني فما لبث ان مال اليهم واندمج في عشيرتهم . كانوا يجتمعون فيتناولون الادب والفن بالدراسة والنقد ، ويتجادلون في شؤون الشعر ، وكان لفيرلين من هذه الجماعة ، حظ كبير من الخير ، فصقلت محاوراتهم طبعه ، وأظهرته على ألوان مختلفة من الجمال والخيال ، ولكن كان له الى جانب هذا الخير حظ كبير من الشر ، فقد حببت اليه عشرتهم احتساء الخمر اولاً ، وادمانها ثانياً ، وكان فيرلين رقيق البدن ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، وكان الخمر سمه القاتل

وصار فيرلين بعد ذلك من المترددين على صالون « لويس كسافير دي ريكارد » فاتصل بالبارناسيين « Parnassians » جماعة « ليكونت دي ليل » ولقيت شاعريته المبدعة ، هوى وتقديراً ، من الشعراء والنقاد النابهين في الاوساط الادبية العالية ، والذين تضمهم هذه الجماعة ، امثال جوزي ماريا ، وسوللي برودوم ، وفرنسوى كوبيه ، وكاتول منيدي وغيرهم

ولعل هؤلاء خير ما صادفه الشاعر في حياته الادبية ، فقد اثبت اتصاله بهم شخصيته كشاعر مرموق الحاضر ، مرجو المستقبل ، كما اصبح فيهم بعد ذلك ظاهر الشخصية ، نابه الشأن

كان هذا في الفترة ما بين عام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٩ أو ما بين ظهور ديوانيه الاول والثاني

وفي ربيع عام ١٨٦٩ قابل فيرلين فتاة تدعى ماتيلد موت Mathilde Maute اخت احد اصدقائه ، فتحابا للنظرة الاولى ، وزاد شغف فيرلين بفتاته ، كما استمرأت ماتيلد مطارحاته الغرامية ، ففكرا

في الزواج ، ولم يكن امره مستطاعاً فقد كانت ماتيلد فتاة صغيرة ، وكانت حداثة سنها تحول دون الزواج ، واخيراً ظفرا بهذه السعادة ، ولم يكن ثمّتَ من سعادة يحلم بها فيرلين بعد ذلك ، فقد كان مُدلَّباً ، يستغرقه الحب ، وكان يرى في الزواج رابطة مقدسة ، كما كان يرى فيه منقذاً له من نقائصه ، مطهّراً لكلّ آثامه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق

فقد بدأت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا ، وكان البروسيون يطوقون باريس، فتطوع فيرلين في جيش المواطنين المدافعين عن مدينتهم ، وهكذا فارق فيرلين زوجه ماتيلد بعد شهور قليلة من زواجهما ، وعاشت الشابة الصغيرة في بعض غرف شارع (الكردينال لجوان) تنتظر زوجها الشاب

ووضعت الحرب اوزارها ، وعاد فيرلين الى باريس ، ولكنهُ كان قد تغير ، كان لا يزال على عهده من الحب لزوجته ، ولكنهُ عاد سيرته الاولى ، مستغرقاً في حمأة نقائصه ، عاد فيرلين الى باريس ولكنهُ فقد وظيفته الاولى ، وكان الاسراف قد اودى بأمه الى الفاقة والعوز ، فاضطر فيرلين ان يغادر باريس ، صحبة امه وزوجه الى « شارفيل » لا ليشاركوا والدي (ماتيلد) غرفتهم الوحيدة فحسب ، بل ليعيشوا ايضاً عالة عليها

ولم يكن هذا كل ما اعدّته الاقدار لفيرلين في (شارفيل) فقد بدأت أخطر دقائق حياته من الاقتراب، وكانت النكبة التي لوثت حياة هذا الشاعر المسكين ، في خطاب تلقاه من شاب شاعر يدعى « آرثر رامبو » Rimbaud ضمنه اعجابه الذي لا حدّ له بأشعار فيرلين كما ضمنه شيئاً من اشعاره هو

وهكذا وجد فيرلين في هذا الخطاب رجلاً يرفعه الى مصاف العبقريين ، كما وجد في هذا الرجل شاعراً مبدعاً ، في شعره قوة جديدة وصوت جديد وخيال جديد

فاندفع فيرلين يدعو صاحبه الى (شارفيل) دون روية أو إمعان ، وحل رامبو ضيفاً على هذا الخليط المزدحم ، يشاركهم نومهم ويقظتهم ويقاسمهم زادهم وشرابهم . وكان رامبو شاباً في السابعة عشرة من عمره ولكنهُ كان مخلوقاً غريباً حقاً !! ... كان مديد القامة ، قذر الثياب ، وكان عاطلاً ايضاً ، وكان مخبره أحط من مظهره ، كان شريراً بكل ما في كلمة الشر من المعاني ، وكان رجلاً سكيراً ، فظاً ، كثير اللجاج ، محبًّا للمشاكسة ، فلم تستطع ماتيلد وأمها صبراً على هذا الضيف وسرعان ما تخلصا منهُ

ولكن رامبو وجد مأوى آخر ، واستطاع أن يتصل بالكثير من الشعراء اصدقاء فيرلين ، فسرعان ما أثر فيهم وتسلط عليهم ، ومن ثمّ وقع فيرلين روحاً وعقلاً تحت سلطان هذا الساحر .

اما ما انتهى اليه أمر هذه العلاقة بين الشاعرين فقد اختلف في اكتناه اسراره الكتّاب والمؤرخون ، وإن أجمعوا على أنها العلاقة الشاذة التي يأثمُ بها اثنان من جنس واحد . وهو ابهام لم يفرغ النقاد من تحقيقه حتى اليوم [1] . اما الذي لا سبيل الى الشك فيه فهي النتائج المحزنة التي اسفرت عنها

(١) [المقتطف] علمنا من الاستاذ علي محمود طه صاحب هذا المقال ان لدى الدكتور طه حسين بحثاً طريفاً يقوّم ما تواضع عليه النقاد من امر العلاقة بين رامبو وفيرلين . فحبذا لو أتاح الدكتور لقراء « المقتطف » الاستمتاع بهذا البحث الجديد . ونغتنم هذه الفرصة لنحيي الاديب الكبير ونهنىء كلية الآداب بعودته الى احضانها

مأساة هذه العلاقة ، ولا ندحة من أن نمسَّها مسًّا رفيقاً ، فقد جعلت حياة ماتيلد مع فيرلين أمراً مستحيلاً فدفعتهُ الى هجرها ، ثم ساقته وصاحبه رامبو الى انكلترا ، ثم الى بروكسل ثم اورثتهُ إدمان الخمر ، فبالغ في نشوته الى حدٍّ نال من صحته ، وأوهن أعصابه ، واوقعه في مرض « الباسومانيا » Pasomania . ثم استمرَّت المأساة في عملها ، فدفعت الشاعرين الى الخصام الشديد ، ثم رفعت يد فيرلين بالنار يطلقها على صاحبه مرات ، فاذا صاحبه جريح ، واذا فيرلين رهين سجن « موز » ثم تخلص المأساة من رامبو ، لتتصل بحياة فيرلين وحده ، فيخرج من السجن بعد عامين ويعود الى فرنسا ثم يحصل على وظيفة مدرس بأحد المعاهد ليفقدها بعد زمن قصير ، ثم يضيق به الحال ، فيذهب بأمه الى (إردن) مؤثراً فلاحة الارض ، ولكنهُ لا يصيب حظًّا من النجاح ، فيغادر فرنسا كلها ويعود الى انكلترا للمرة الثانية ، ثم يحن الى وطنه فيرجع اليه عام ١٨٧٨ ويظفر بمنصب استاذ في كلية « رتل » Rethal ومنها الى باريس ، واذا بالمتشرد الكبير يظهر مرة اخرى في الحي اللاتيني ، ويتصل بأصدقائه القدماء ، من الشعراء الرمزيين ، روَّاد هذا الحي . ثم يبسم له الحظ قليلاً فينشر مجموعة جديدة من شعره وكتاباً آخر في تصوير بعض الشخصيات الادبية ، فيصيب من ورائها بعض المال ، وكثيراً من الشهرة والمجد ، ثم يعبس الحظ له الى الابد ، فيتخطف الموت امَّه عام ١٨٨٦ ويقع فيرلين تحت وطأة المرض هيكلاً محطماً ، ولكنهُ رغم هذا لم يقلع عن إدمانه الخمر ، ثم تذهب به المأساة الكبرى الى نهاية الشوط ، فتأبى ماتيلد الصفح عنهُ ، وترفض لقاءه ، وتستأثر وحدها بطفلهما الوحيد ، وهكذا يقف فيرلين حيال العالم وحده ، ثم تمر به عشر سنوات أخرى وهو يضرب في هذا التيه الغامر والعذاب المطلق حتى يصادف « اوجيني كرانتس » فيؤلف بينهما البؤس ويصدح بلبل الحب فوق ظلل هذا القلب الموحش الحزين ، فينتعش قليلاً ولا يكاد يحلق للحياة الجديدة ، حتى تتألب عليه الامراض فيعجز عن مقاومتها ، فيصرعهُ الموت ، وبذلك تنتهي حياته او مأساتهُ المفجعة عام ١٨٩٦

كان فيرلين شاعراً غنائيًّا محبوباً ، وقد ظهر ميله الى الشعر ايام دراسته الاولى فظهر في قرضه مقدرة ونبوغاً لا يتكافآن مهما عمره الصغير . اما ديوانه الاول « قصائد طابعة » فقد كانت عملاً فنيًّا رائعاً ، وكانت كلها شعراً غنائيًّا تضطرد به الموسيقى اضطراداً عجيباً ، تجد في بعضها الاناقة والجمال وفي بعضها الآخر العظمة والرقة . ولعلَّ اجلها قصيدته في الخريف أرجها شعراً وان كانت الترجمة تفقدها اجل ما فيها وهو الموسيقى

تنهدات الرياح
رتيبة النواح
تجرح قلبي بها قيثارةُ الخريف
وثمَّ صوت عابرٌ

من السنين الفوارْ
يهزُّني فأصغي للهاتف المطيفِ
ويستفيض خيالي
بالذكريات الخوالي
أنشدها فأبكي بالمدمع الذريفِ
وعند ذا تحملني
كورقةٍ من فَنَنِ
قد ذبلت وانطلقت في العاصف الشفيفِ

وما كاد ديوانه الثاني « اعياد مرحة » يظهر في المكاتب ، حتى اقبل عليه الادباء ، وكان حظه عظيماً من الناقد الكبير « سانت بيف » فبدأ يكتب عن فيرلين الشاعر ، كاكتشاف جديد ، وذخيرة نفيسة في الشعر الفرنسي ، كما كتب عنهُ الكاتب الكبير فرنسوى كوبيه فوصفه بأنهُ خلق شعراً يمتاز بطابعه الفردي ، ويسترعي ارق اهتزازات العصب الانساني ، وان قوافيه واوزانه تجمع بين الحرية والترسل في اسلوب كله قوة وكله عذوبة واستعارات رائعة وموسيقية فريدة

والحق ان ديوانهُ الثاني « أعياد مرحة » كان لهُ من عنوانه نصيب عظيم ، فكانت قصائده أكثر احتفالاً بالبهجة ، وهكذا تكون روح الشاعر ، فغناؤها يترجم دائماً عن شعوره بالحياة ، وتأثره بأفراحها وأتراحها ، فهي في ديوانه الأول تغشاها الكآبة ، وهي في ديوانه الثالث الذي نظمه في السجن ، Romances sans Parole تتجاوب بأصداء الألم الذي تضطرب به روح الطائر الحبيس ، وهي في ديوانه الثاني مرحة تصدح بالفرح ، وتغرد بالأمل الجميل . وكما انطق البؤس فيرلين كذلك انطقهُ الحبُّ ، ولم يكن غرام ماتيلد عبثاً محضاً ، فقد ألهم فيرلين أرقَّ اشعاره وأعذب أغانيه وكشف عن جوهر روحه الصافية ، وإبداع عقله ، فمن العيون الضاحكة ، ومن الشعر الاشقر المتموّج ، ومن هذا الصوت الرخيم ، استمدَّ فيرلين الوان خياله المتلألئة ، ومرح قوافيه ، وروعة انغامه ، ولعلك تحسُّ هذا كلّه في هذه القصيدة — :

هذا هو القمر الفضيُّ يملأ الغابة نوراً
وثمَّ صوتٌ ساحر يهتف تحت كل فرع
ومن ذؤابة كل غصن « يا محبوبتي »
هذا هو الغدير الرقراق كصفحة المرآة
يسبح فيه خيال الصفصافة السوداء
حيث تئنُّ الريح
ألا فلنحلم يا حبيبتي فتلك ساعتنا

فالكون يلفه السكون ويهفو به الحنان
كأنما تُسلسل اللانهاية المشرقة ألوانها
ألا انها الساعة المنتظرة

وليست اشعار فيرلين كلها بهذه البساطة ، نعم ان منها ما يعد من الاغاني الشعبية ، ولكنهُ أيضاً كان شاعراً رمزيّاً عميقاً ، ومن الواضح ان فيرلين تأثر في مستهل حياته بالنمط الكلاسيكي ، ايام اتصاله بجماعة « ليكونت دي ليل » ولكنهُ لم يستسغهُ ، ولم يرضَ عنه وجدانه ، فصدف عنهُ الى طبعه الاصيل . ولكن من الواضح جداً ان فيرلين تأثر ببودلير الى حد ما ، فقد أسلفنا القول ان بودلير سبقهُ بنحو عشرين عاماً ، ولعلَّ الجانب الرمزي في بودلير هو الذي استهوى فيرلين ، بيد ان الفرق بين الرجلين كان بعيداً جداً ، فهما يختلفان في الطبع وفي النظرة الى المرأة ، فقد كان لفيرلين طبع لين ، ونفس رقيقة رغم مزاجه الحاد ، ثم انهُ كان يحب المرأة حبّاً اقرب الى الروحانية منهُ الى الشهوة المجردة ولم تفسد المرأة حياته ولكنهُ الذي افسد حياتها . ولكن بودلير كان شهوانيّاً الى حد بعيد ، وكان ذا فلسفة خاصة فقد رمى القدر في احضانه بنسوة يستمرئن متعة الجسد ، فراح ينشد من وراء فلسفته « حواء » اخرى لا تتصل بطريدة الجنة . لقد كان بودلير ضحية المرأة اما فيرلين فكان ضحية الخمر

ان أهمية شعر فيرلين في موسيقاه ، تلك الموسيقى التي وصفها النقاد بالموسيقى الموزارية نسبةً لموزار الموسيقي الالماني العظيم ، ففيرلين من هذه الناحية من طائفة فيلون وهاينى وادجار إلن بو ، ولكنه زاد عليهم تلك اللغة البارعة التي استحدثها في شعره ، فهي لغة لها أهمية موسيقاه . لقد سكب فيها كل ما اضطرم به قلبه من الامل والحماسة والحب والقوة ، وكل ما اضطرب بين جوانحه من الاحلام والكآبة والمرح . ويجدر بي القول قبل ان أختم هذه الدراسة ، ان فيرلين لم يعش خامل الذكر في جيله ، ولا منكور الأثر ، فقد رأى بعينه تألق نجمه في عالم الشعر ، وشهد أشعاره مترجمة الى غير لغة واحدة ، وسمع أغاريده تملأ افواه الشعب الفرنسي ، كما سمع الكثير من إعجاب أعظم كتّاب جيله شأناً وأخطرهم رأياً ، وكان الاعتراف بمكانته من المدرسة الرمزية الحديثة أمراً مسلماً ، ولكن املاً واحداً من آماله الكثيرة الضائعة ، لم يتحقق ، فأضاف إلى عذابه الروحي وشقائه المادي ، شقاءً آخر وعذاباً جديداً ظل يحزّ في قلبه حتى وقف عن ضرباته . فقد دفعه بؤسه ، وعار علاقته برامبو ، أن يخلص منها ويمحوها بترشيح نفسه « للاكاديمي فرنسيز » ويشير بعض النقاد إلى أسباب أخرى ترجع إلى غروره في ايامه الاخيرة واعتداده بنفسه ، ولكن من المحقق أنه كان يطمح الى الظفر بقوة الاحترام ، وإلى مكافأة الاكاديمية الضئيلة لينعم بالراحة بين دنان الخمر ، وكان يرى في تحقيق هذا الامل مجداً خطيراً يتوج حياته بالخلود . وقد وصف النقاد ذلك بأنهُ « كوميديا خطيرة » كما عابوا عليه طموحه « لذلك القبر المزخرف البغيض الذي يشد القريحة ويطفيء النبوغ » . ولكن الزمن حقق بعد مماته ما عجز عنهُ في حياته فرفعهُ الى مصاف العبقريين وكتب اسمه في ثبت الخالدين